اللغة العربية وتحديات العولمة

د. عبد الله أبوهيف – لبنان

ملخص:

مهدتُ للبحث بمقدمة تؤطر قضية اللغة العربية وتحديات العولمة وبيّنتُ فيها الإحساس المتفاقم بمخاطر هذه التحديات لدى جمهرة عريضة من علماء اللغة العربية والمعنيين بها، حتى صار هناك صراع واضح بين «العوربة» والعولمة مواجهةً لها وتبصيراً بمعوقاتها ومشكلاتها، وأتبعتُ ذلك بنظرة تاريخية لهذه التحديات التي ارتبطت في آخر الأمر بالمعلوماتية بالدرجة الأولى، وخصصتُ إحدى الرؤى العربية البارزة في وعي هذه التحديات بالمناقشة، وهي للعالم نبيل علي من مصر، ثم عالجت بعض ممهدات العولمة، ولاسيما حاضنتها الاستعمارية كما تتجلى في ظاهرة استعمار العقل استعماراً لغوياً، والفرانكوفونية ومثيلاتها، ومجاوزة ثنائية التعريب والتغريب، ومواجهة فرضية الحتمية اللغوية.

وأفردتُ حيزاً لمعاينة بعض تحديات العولمة على سبيل المثال لا الحصر، لأنها كثيرة، مثل النشر الإلكتروني وأهمية تعريبه، والتفكير العربي بالحاسوب وتطوير استطاعة اللغة العربية المعلوماتية. وأوردتُ في الخاتمة خلاصة البحث.

1ـ تمهيد:

يبدي كثير من علماء اللغة تخوفهم من حاضر اللغة العربية إزاء تحديات العولمة، فهو «يدمي القلب»، عند صالح بلعيد (الجزائر)، **ويعزو هذه الحال إلى مخاطر الهيمنة اللغوية التي تمتلكها لغات حديثة وهجينة**، برأيه، ما لبثت في ظل العولمة أن «تكونت في عصر السرعة، ونالت المكانة العلمية التي أهلتها لذلك، بفضل الفكر العلمي والرياضي الذي سيطر على نخبها وعلى فكرها، وبالتطبيقات التقنية التي مسّت منظومتها الفكرية»[1].

تفاقمت هذه المخاطر لدى الباحثين اللغويين في المعاقل الإسلامية الأكاديمية التقليدية أمثال «رابطة الأدب الإسلامي العالمية»، فكتب سكرتيرها محمد عبدالشافي القوصي (مصر) في بحثه «العربية لغة الوحي والوحدة» **عن العقبات التي تقف حاجزاً في طريق اللغة العربية بتأثير العولمة**، وذكر منها على سبيل المثال **جعل اللغات الأجنبية لغة محاضرةٍ وتدريسها في بعض الكليات والمعاهد العربية، وتهاونت المؤسسات الإعلامية باختلاف ألوانها وطبيعتها في استعمال اللغة العربية إلى أبعد الحدود، بل إن كثيراً من الكبار الإعلاميين يسوغون ما أخطأوا، وتورطوا فيه بأنهم**

ليسوا من رجال اللغة، وكأن الصحة اللغوية مطلوبة فقط من المختصين، ناهيك عن وجود بنوك ومصارف مالية وأنشطة تجارية وعملية وثقافية لا تتعامل إلا باللغات الأجنبية، بالإضافة إلى تسلل موجة عالية من التغريب وتراجع التعريب... الخ[2].

لا يرتبط الإحساس بهذه المخاطر المتفاقمة بانتشار المعلوماتية وتقاناتها فحسب، لأنها نتاج الاستعمار والاحتلال والغزو العسكري الذي آل إلى غزو اقتصادي وفكري وإعلامي وثقافي في أشكال الاستعمار الجديد والتبعية والهيمنة والاستعلاء الغربي والأمريكي مما توجزه العولمة في تجلياتها النهائية، فقد أدرك المعنيون شراسة هذه المخاطر عندما رأوا في التعريب سبيلاً لتدعيم الوجود العربي والوحدة العربية باللغة العربية بالدرجة الأولى، إذ كان التعريب ومايزال سند «استعادة الهوية العربية التي عمل الاستعمار على سلبها بشكل مباشر وقحٍ في بعض أقطار العروبة، متسترٍ متكتمٍ في بعضها الآخر»[3].

رأت عواطف عبدالرحمن (مصر) المتخصصة في قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، أن آليات هذه التبعية تظهر جليةً في الثقافة ولاسيما اللغة، فثمة رؤية «تنظر إلى الاستعمار الثقافي كبناء مستقل بدرجة أو تزيد عن أبنية التبعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع مراعاة عدم انفصاله عنها ووجود علاقة تفاعل دائمة بينه وبين هذه الأبنية ككل»[4].

لقد برزت مبكرةً تأثيرات العولمة أو ما يفضي إليها مثل التراجع عن الهوية القومية ونهاية التاريخ بما هي مقولة فكرية ومعرفية تستند، فيما تستند إليه، إلى مقولة اللغة وعاء للفكر، ولعلنا لا ننسى بواعثها الصادرة عن المخابرات المركزية الأمريكية و«البنتاغون»، كون أبرز منظريها من هؤلاء الموظفين مثل فوكوياما، فانتشرت أفكار العولمة اللغوية، وأولها التشكيك في اللغة العربية، بينما لا ثقافة لأمة إلا بلغتها، وثانيها مصادرة كل إنتاج وطني مهما كانت جودته، وقبول ما يأتي من الغرب دون مناقشة، وتظهر الوقائع برأي بلعيد أن «الخصائص المحلية لا تذوبها العولمة، ولا تنتقص من قيمتها، أو تضعف قدرتها على أداء دورها إن كانت في مستوى العطاء لا التبعية»، مما يستدعي معالجة المواطن التالية حسب تقديره :

1. معالجة قواعدها النحوية بالتركيز على المستعمل منها.

2. معالجة خطها الذي تكتب به.

3. معالجة طرائق تلقينها لأهلها ولغير الناطقين بها.

4. معالجتها علاجاً آلياً بحيث تكون في مستوى اللغات الأخرى الحاملة للرصيد المعرفي من خلال المعلوماتية والشبكات والاتصال والترجمة الآلية ووجود المنطاقيات.

5. تفعيل مؤسساتها العلمية، والرجوع إليها للإفتاء اللغوي حسب المستجدات العصرية مع توحيد الجهود العلمية لهذه المؤسسات.

6. الفصل بين السياسة التي تنتهجها دولها والمتطلبات العلمية الحضارية لهذه الأمة في معركة السباق التقني على المستوى العالمي.

7. الإنفاق وتوحيد الطاقات البشرية والمادية، وهذا مطلوب من الحكومات العربية. وكان عليها أن تعمل على توحيد طاقاتها المادية وعقول أبنائها في الجانب الثقافي والعلمي عن طريق المنظومات التربوية ليحصل التقديس للغة العربية. ولتكن العبرة من اليهود الذين لم يتخلوا عن لغتهم، وبقوا متمسكين بها أمام الزخم الكبير لما تفيض به اللغات الحية. لأنهم يدركون سر الهوية الثقافية، ومن اليابانيين أو الصينيين أو الكوريين، لأنهم واعون بأن الثقافة تعني، مما تعني، وحدة الفكر والذات والهوية[5].

حاول علماء آخرون أن يضعوا العولمة في مقابل ما سموه «العوربة»، مثل تمام حسان (مصر) الذي يرى ظواهر عديدة دالة على امتياز العربية وتفاعلها المستمر المتكافئ مع لغات العالم المتقدم في المجالات جميعها[6].

وقد أيد عبد الفتاح أبو مدين (السعودية) هذه الأطروحة، ودعا إلى تأصيلها في مجالي التربية والإعلام من خلال تحسين أداء الناشئة و«إصلاح ما مسّ ألسنة الداخلين علينا بدون استئذان المتحدثين إلينا، وهم منا، عبر الشاشات والإعلان»[7].

استنتج إبراهيم بدران (الأردن) أن تحديات القرن الحادي والعشرين تتصل في غالبيتها بالعولمة وأدواتها مثل الترجمة الآلية والشابكة (الانترنيت) واقتصاديات التعليم وسواها، وهذا كله باعثٌ لاحتساب هذه التحديات العديدة، و«في مقدمتها تحويل اللغة والنهوض بها إلى مشروع تنموي تستثمر فيه الأموال والجهود، باعتبارها إحدى أدوات التنمية واكتساب المهارات العلمية والمعرفية والتدريبية. وضمن هذا المشروع التنموي يمكن أن تواجه اللغة العربية متطلبات المرونة والتطوير والترقيم والاختصار والترميز التي يقتضيها العصر، وتقتضيها التكنولوجيا الحديثة في المعلومات والحواسيب والاتصالات. وتواجه اللغة تحديات هائلة أمام الانترنت والعولمة وحوسبة التراث واقتصاديات الثقافة والتعليم دون أن يتحول النهوض باللغة العربية إلى مشاريع قومية عربية وقطرية وطنية، فإن القرن الحادي والعشرين وما سيرافقه من تطورات في أدوات الاتصال والعلم والثقافة قد يحمل مفاجآت للغة العربية لا يحسن الاطمئنان إلى نتائجها»[8].

لقد عوّل علماء اللغة العربية دائماً على ترقية اللغة من داخلها، بمعنى أننا ينبغي أن نخدم لغتنا، في العلوم و الفنون و الآداب، و في شؤون حياتنا كافة. ومن ذلك النهوض بمجالات التنمية

اللغوية في المصطلح واللسانيات والنحو والاقتصاد والإدارة والتربية و لغات الوسائط الثقافية والإعلامية والفنون الأدبية المختلفة.

ولعله بعد هذه الملامسات الواقعية أن نشير إلى أن مواجهة اللغة العربية لتحديات العولمة تتطلب العناية بأمرين:

أولاً: أهمية مواجهة تحدي المعلوماتية في سياقها الأشم والأعم: تقنيات المعلومات في امتلاكها وإنتاجها، وفي إدغامها بمناحي الحياة كلها بعد ذلك. ويتطلب ذلك المشاركة في ابتكار تقنيات المعلومات وتصنيعها، لا الاكتفاء باستهلاكها فحسب. وضمن هذا السياق الشامل والعام، يتبدى اختصاص جديد من اختصاصات تقنيات المعلوميات المتعددة: هو هندسة اللغة LANGUAGE ENGINEERING.

ثانياً: الإحاطة بالتسارع العلمي في تقنيات المعلومات التي غدت «طريق المستقبل» بتعبير بيل جيتس، وهي طريق شائكة مفتوحة إلى ما لا نهاية، وإن كان الأهم فيها هو الصورة والأرقام لغة بديلة عن اللغة.

إن تعاضد المعلوماتية مع الاتصالات في ما نسميه «المالتيميديا» يعني الاستعمال المتعدد لوسائل الاتصال، ويعني تطورات تسند تقنيات المعلومات التي أفرزت مجتمعات ملتبسة: الموجة الثالثة، المجتمع ما بعد الصناعي، مجتمع ما بعد الحداثة، مجتمع المعلومات، الثقافة الرقمية. ويرتهن هذا التسارع العلمي بالخيال التقني.

لقد هدد الحاسوب المخيلة، اعتماداً على مخيلة جاهزة محسوبة مبرمجة، مثلما هدد الحاسوب عادات القراءة والكتابة وطقوسها في الحرية وانتفاء الشروط الكهربائية أو شروط الأداء وسواها، إلى مداهمة الحاسوب لهذه العادات من داخلها، ولاسيما التعامل مع اللغة وما تؤدي إليه: التنميط وفقدان الروح. وثمة مخاطر أخرى محدقة تؤثر في اللغة، هي أمراض الحاسوب التي تقارب الجائحات والأوبئة في اتساعها وتسللها إلى حد المحو الكامل للذاكرة والمخيلة معاً. ولن ننسى في هذا المجال تلك المحنة التي سببها « فيروس تشرنوبل « الذي أتلف مئات الألوف من الأجهزة في الصين. ناهيك عن انتهاك الحرية والحرية الشخصية في استعمال اللغة وما تؤول إليها.

على أنني سأعالج هذه التحديات بعد هذا التمهيد وفق الخطوات التالية:

1. نظرة تاريخية لتحديات العولمة، والتوقف عند رؤية أحد العلماء العرب البارزين لها.

2. اللغة العربية وبعض ممهدات العولمة، ومناقشة حاضنتها الاستعمارية، كما تتجلى في ظاهرة استعمار العقل استعماراً لغوياً، و«الفرانكوفونية» ومثيلاتها، ومجاوزة ثنائية التعريب والتغريب، ومواجهة فرضية الحتمية اللغوية.

3 . اللغة العربية وبعض تحديات العولمة مثل النشر الحوسبي وقضية التفكير بالحاسوب .

2- نظرة تاريخية ورؤية عربية :

تفصح المنظورات التاريخية والمقارنة من الأصالة إلى الحداثة عن مزايا الرؤى العربية المناهضة لتحديات المعلوماتية، وهذا ما نشير إليه في مسألتين أساسيتين هما ضرورة التعريب والمعالجة اللغوية الآلية :

2-1- اللغة العربية وتحديات المعلوماتية :

تبدلت النظرة إلى اللغة العربية تبدلاً كبيراً خلال العقدين الفائتين بتأثير ثورة المعلومات، بل **جاوز التبدل إلى التأثير العميق في خصائص منظومة اللغة العربية وعلائقها الداخلية والتعبيرية والوظيفية في الكتابة الإبداعية، وفي نقدها الذي مال إلى المناهج الحديثة وطرائقها البحثية**، وقد ساهم التفجر المعلوماتي في تكونها من الحاسوب، إلى « المالتي ميديا »، إلى الشوابك، وهي شبكة معلوماتية كونية وإقليمية ومحلية جعلت التواصل المعرفي ومناهجه وتقاناته وإجراءات مختلفة عما كانت عليه قبل هذين العقدين، وصار الحديث عن الكتاب الإلكتروني باستعمال الكتابة الحاسوبية وقابليات التأليف والتوثيق وثراء تعدد الوسائط، في متناول اليد، ويضاف إلى ذلك أن الحاسوب يتدخل إلى حدّ كبير في تنظيم عمل المخيلة الإبداعية، وفي انتظام منهجية محددة للعمل المعرفي في آن واحد، انطلاقاً مما يسمى النص « المفرع » أو النص « الممنهل » « Hypertext »، وهو لغة الكتابة على الشابكة، أو نظام نقل النصوص للشابكات .

يظهر هذا التبدل العمق في اللغة العربية في تأملنا لتطور استجابة اللغة العربية لهذا التفجر المعلوماتي، منذ الدورة السابقة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي (الرباط 1989)، فقد تفاقمت الحساسية العربية إزاء التحديات التي تواجه اللغة العربية، فحملت الدورة شعاراً شديد الدلالة هو « اللغة العربية هويتنا القومية » . وقد طبعت هذه الأبحاث في كتاب « من قضايا اللغة العربية المعاصرة » (تونس1990) .

إن مواجهة تحديات العولمة إزاء اللغة العربية هي الأنفع في حمايتها، وقد دعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو) إلى ندوة أخرى لمناقشة التحديات التي تواجه اللغة العربية وهي تستقبل القرن الحادي والعشرين، ضمن محاور « الخطة الشاملة للثقافة العربية »، وهي « العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين » (البحرين 1995) . وتوزعت الندوة إلى معالجة العربية والمصطلح، والعربية والعالمية، والعربية والتعريب . « فإن في العناية بالمصطلح وقضاياه عناية باللغة العربية بوصفها لغة علمية وحضارية، ذلك أن التحديات التي تواجه العربية في هذا المجال كبيرة :

فإنها في حاجة إلى مواكبة التطور العلمي والمصطلحي الهائل الذي يشهده العالم اليوم، ولا يمكن لها ذلك إلا إذا أصبحت قادرة على أن تعتمد على نفسها غنية بالمصطلحات العلمية والفنية الموحدة المقيسة. وفي الاهتمام بالتعريب وقضاياه تهيئة لإنشاء العلم العربي الخالص والبحث عن الطرائق التي تقرّب العلم من الذهن العربي بلغته، وترسيخ لجذوره في البيئة العربية»[9].

من الملحوظ، أن البحوث جميعها لم تقترب من تحدي المعلوماتية الذي يواجه اللغة العربية، أو هي واجهته قبل ذلك. ولعل هذا الإغفال جعل القائمين على «الأليكسو» أن يعنوا بقضية تعريب الحاسوب في كتاب «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية» (تونس1996)، «ذلك أنه مما تقدم بات من الأكيد أن يتكلم الحاسوب باللغة العربية، أي أن يصبح قادراً على التعامل مع الحرف العربي (يقصد الأصوات) مدخلات ومخرجات ومعالجة، إلا أن هذا المجال الحيوي يواجه بعض المشكلات والصعوبات التي تعوق مسيرته والارتقاء به إلى المستوى المطلوب»[10].

تلازمت مواجهة تحديات العولمة إزاء اللغة العربية مع ضرورة تحديث المعلوماتية فيها، مثلما أوضحت إدارة الثقافة في «الأليكسو» أنهم نظروا «إلى هذه الإشكالية من واجهتين: فمن الجانب اللغوي تتمحور هذه الإشكالية حول الحرف العربي على مستوى الخزن والمعالجة والإدخال والإخراج، كما تهم الكلمة والجملة، وبصفة أعم معالجة اللغة العربية على مستوى الجذور والتراكيب، أما من الجانب التقني والفني، فالإشكالية تتمثل في توفر أجهزة ومعدات تتعامل مع الحرف العربي بصفة طبيعية، ونظم تأخذ بعين الاعتبار خاصيات اللغة العربية بما في ذلك من حروف وقواعد معالجة الكلمة والجملة، لنصل إلى مشكل المصطلحات وضرورة وضع مواصفات ومقاييس لكل ذلك»[11].

لعل هذه المحاولة أول تصد جدي وشامل وعام لقضية اللغة العربية والمعلوماتية، وهو ما توضحه عنوانات بحوث الكتاب: نبذة تاريخية عن استخدام اللغة العربية في المعلوماتية، أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية: الكلمة- الجملة، المعالجة الآلية للكلام المنطوق: التعرف والتأليف، تعامل الأجهزة والمعدات مع الحرف العربي، اللغة العربية والنظم الحاسوبية والبرمجيات، المواصفات والمقاييس لتعريب المعلوماتية، ميادين استخدام اللغة العربية في المعلوماتية: التوثيق والمكتبات والتعليم والتعريب، البعد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لاستعمال اللغة العربية في المعلوماتية. أي أن ثمة نظرة جديدة وتعاملاً جديداً للغة العربية في البحث العلمي، لابدّ من أخذهما بالحسبان، فقد توصل الباحثون العرب إلى نتائج هامة تتعلق بالمعالجة الآلية للبيانات العربية، منها: طرق تخزين البيانات واسترجاعها - المعاجم العربية لإصلاح التهجئة - برامج تدقيق الإملاء الصرفية والنحوية - المحلل الصرفي - برامج تحليل الإعراب النحوي - برامج التحليل الدلالي - برامج توليد الكلمة في اللغة العربية.

ثم صدر مؤلف من «قضايا فكرية» عن «لغتنا العربية في معركة الحضارة» (القاهرة 1997)، والبارز في مقالاته وأبحاثه المكتوبة بأقلام نخبة من المفكرين والعلماء والأدباء والنقاد، ثلاثة أمور، **الأول توكيد مكانة اللغة العربية في تدعيم أبحاث الهوية، والثاني هو مقدرتها على التجدد والأصالة، وفي صلب ذلك مواجهتها للتحدي الاتصالي والمعلوماتي، والثالث هو استجابتها البطيئة والقاصرة والتخلف على الرغم مما تحقق لها من تجديد وتطوير وتطويع نسبي لمقتضيات العصر وحاجات التطور المجتمعي العربي بجوانبه الإبداعية والتنموية والإنتاجية جميعها.**

كانت شهادة خليل النعيمي (سورية)، وهو روائي وطبيب وجراح. درس الطب والفلسفة في جامعة دمشق، ويعمل حالياً في مستشفيات باريس، في منتهى الأهمية عن ثراء اللغة العربية واستجابتها الدائمة للتجدد والتأصيل، مما يفسر سيرورتها وبقاءها واحتضانها للغة العلوم والمعلوماتية:

«أما الصبغيات (الكروموزوم)، والمعلوماتية (الأنفورماتيك)، والعصب الودي (السمبتاوي)، والبطين (فالتريكول)، وهو بطين القلب التشريحي، والشغاف (بيريكارد) وهو الذي يحيط بالقلب، ويحميه، أي شيء أكثر تعبيراً عن هذه المهمة من الشغاف؟. ولابد أن كلمة الشغف، اشتقاقاتها جاءت من هذه الإحاطة الحميمة، وغير هذه من التعابير والكلمات المعربة التي درسناها في جامعة دمشق، وهي التي باستطاعتها أن تضفي بعداً جديداً على اللغة، وتعبّر، في الوقت نفسه، عن طاقة هذه اللغة على التجدد والتطور»[12].

وتحدث النعيمي عن فضل اللغة عليه كاتباً وطبيباً جراحاً، لأن «اللغة بلا علم هي لغة خرساء»، ولأن التعريب ليس دائماً تخريباً، « إنه، على العكس سلاح إضافي بالنسبة للطبيب العربي مثلاً، و«لغة الدراسة ولغة الممارسة هي نفسها، وإذا ما قرر أن يتخصص، فإنه بالتأكيد سيكون قادراً على تخطي عوائق تعلم لغة جديدة»[13].

إنني أعتقد مثل النعيمي، وهو رجل علم وأدب، **أنّ تعريب المعلوماتية وإنتاجها أول السبل لمواجهة هذه التحديات الضاغطة علينا جميعاً.**

2-2- رؤية عربية لتحديات المعلوماتية أمام اللغة العربية:

لقد آل الموقف من اللغة العربية وتحديات المعلوماتية إلى حساسية متفاقمة إزاء القصور المعرفي والإنتاجي العربي في هذا السبيل، ولعل الأبرز في معالجة هذه القضية هو نبيل علي (مصر) الذي وضع بحوثاً متعددة لمجاوزة الراهن ولمواجهة المشكلات المعرفية والتقنية الناجمة عن هذا التحدي، وسأتوقف عند جهوده ولاسيما كتابه الهام «الثقافة العربية وعصر المعلومات:

رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي » (الكويت2001) الذي يُعد انعطافة نوعية في التصدي لهذا الشاغل الرئيس.

كان بحثه «نحو نظرة أشمل للغة» (المنشور ضمن المؤلف المشترك «قضايا فكرية» القاهرة1997)، تصدياً مبكراً ودقيقاً للغة العربية والمعلوماتية، وهو صاحب أول مؤلفين باللغة العربية عن هذه القضية الشائكة والهامة: «اللغة العربية والحاسوب» (1988)، و«العرب وعصر المعلومات» (1994). وقد عالج نبيل علي اللغة ضمن المحاور التالية:

1. الدور الأكثر خطورة التي تلعبه اللغة في مجتمع المعلومات.

2. الموقع الأكثر أهمية الذي تحتله اللغة حالياً على خريطة المعرفة الإنسانية.

3. الإشكالية الأكثر تعقيداً التي تصاغ في قالبها قضية اللغة.

4. التوجهات الأكثر تعدداً لتناول إشكالية اللغة وأمور معالجتها آلياً بواسطة الكمبيوتر[14].

وتوقف نبيل علي عند النهج الحاسوبي في دفع عجلة التنظير اللغوي إلى آفاق جديدة، وذلك انطلاقاً من منظور هندسة المعرفة وإقامة النماذج لتمثيل الأداء الكلي لمنظومة اللغة، فقد ظهرت، وما زالت تظهر، عدة نظريات نحوية، وهي تمثل النتاج الوفير للتفاعل الشديد بين الاستعمال النحوي والاستعمال الدلالي من جانب، وبين اللغويين وعلماء الحاسوب من جانب آخر. **ولاحظ أن النماذج اللغوية والنحوية العربية المقترحة تختلف من حيث دقتها في توصيف الظواهر اللغوية وقدرتها على تفسيرها، ولاشك في أن اختيار أمثلتها لنمذجة اللغة العربية، هو أمر يتطلب بحثاً متعمقاً في خصائص تلك النماذج باعتبار خصائص النحو العربي المذكورة.** وبيّن في ختام بحثه مدى تخلف دراسة اللغة العربية، بالنظر إلى تطور المعلوماتية، في أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية من خلال القائمة التي أوردها للمواد التي تدرس في هذه الأقسام، وهو بيان يدعو إلى الشجن والأمل بمجاوزته في الوقت نفسه، وقد وضع نبيل علي سبلاً للمجاوزة في كتابه «العرب وعصر المعلومات»، فعالج خصائص منظومة اللغة العربية من منظور معلوماتي، ومراحل تطور دراسة اللغة، والعلاقة بين تقانات المعلومات واللغة العربية، وتقانات المعلومات كأداة للغة العربية.

وضع نبيل علي الملح على الجرح، على أن السبيل متاح لمجاوزة الراهن غير المرضي، باللجوء إلى المجالات التالية:

1. تكنولوجيا المعلومات كأداة للإحصاء اللغوي.

2. استخدام تكنولوجيا المعلومات في معالجة الكتابة العربية.

3. تكنولوجيا المعلومات كأداة للصرف العربي.

4. تكنولوجيا المعلومات كأداة للنحو العربي.

5. استخدام تكنولوجيا المعلومات في الفهم الأتوماتي للسياق اللغوي.
6. تكنولوجيا المعلومات في تحليل النتاج الأدبي وأساليب الكتاب.
7. تكنولوجيا المعلومات كأداة لمكننة المعجم العربي.
8. تكنولوجيا المعلومات كأداة لدعم العمل المصطلحي.
9. تكنولوجيا المعلومات في مجال الترجمة الآلية.
10. توليد الكلام العربي وفهمه آليا [15].

غير أن الجهد الأهم لنبيل علي هو كتابه الأخير المشار إليه آنفاً الذي يكمّل فيه جهده السابق في **إشاعة نظم المعلومات باللغة العربية وفي أنساق الثقافة العربية: برمجة وتصميماً وإدارة وبحثاً**، ولربما كان هذا المفكر اليوم في موقعه، على الرغم من أنني تخلصت مبكراً من أوهامي حول الإمكانية العربية التي ماتزال مهدورة، فهو نائب «مدير المركز العربي للكومبيوتر»، و«مدير الشبكة القومية للمعلومات» في مصر.

رأى علي أن التنمية المعلوماتية هي قضية ثقافية في المقام الأول، أي أنها تحد ضاغط على الثقافة العربية والمثقفين العرب، فمانزال بحاجة إلى منظور عربي لثقافة المعلومات، إذ كنا حتى وقت قريب منشغلين بتحديات الثقافتين أو الثقافة الأدبية والثقافة العلمية مما أثاره C.B.Snow، ثم دوهمت الثقافة العربية بتحديات أعظم هي تقانات المعلومات، ومنها ما اصطلح على تسميته «تكنجة المعرفة» أو «تكنجة الأدب» بفضل التفجر المعلوماتي الهائل، ولاسيما تطبيقاته في «الذكاء الاصطناعي» و«النص المفرّع» وسواهما، ولا يخفى أن هذه القضايا اللغوية تتطلب التعريب بالدرجة الأولى.

قام الكتاب على حوار شائق وممتع بين إطارين متداخلين، الأول هو الثقافة بوصفها محوراً لعملية التنمية الاجتماعية، وتقانات المعلومات بوصفها محوراً لعملية التنمية العلمية ـ (التقنية)، فعرض ملامح المشهد العالمي الثقافي ـ المعلوماتي متبوعاً بنظيره العربي، وطرح منظومة تكنولوجيا المعلومات من منظور ثقافي، وطرح منظومته الثقافة من منظور معلوماتي. ثم تناول فروع منظومة الثقافة بالتفصيل: ثقافة اللغة، وثقافة التربية، وثقافة الإعلام، وثقافة الإبداع الفني، ومنظومة القيم والمعتقدات.

أثار نبيل علي في كتابه الأسئلة الرئيسة حول العرب وحوار الثقافة والتقانة تمهيداً لمعالجة قضايا الثقافة العربية وفروعها من منظور عربي معلوماتي، واختار فصل ثقافة اللغة نموذجاً لاستعراض طريقته في المعالجة مكتفياً بالعنوانات الرئيسة، لأن تفريعات المؤلف كثيرة ومفتعلة غالباً:

1ـ نحو نظرة أشمل للغة، ويدرس فيها: اللغة ذلك الشائع المجهول، وتعاظم اللغة في عصر المعلومات، مشيراً إلى تقاعسنا اللغوي و عالمية العربية وتحديات العولمة.

2ـ علاقة اللغة بفصائل المعرفة، ويدرس فيها: موقع اللغة في خريطة المعرفة، واللغة من الخضوع إلى الإخضاع، وعلاقة اللغة بالفلسفة، وعلاقة اللغة بالعلوم، وبالفنون، وبالهندسة.

3ـ اللغة في إطار منظومة الثقافة.

4ـ منظومة اللغة..الخ[16].

حفل الكتاب بمعالجة مبتكرة عامة وتفريعية لعناصر كل قضية على حدة، كأن يورد منظوراً عربياً للعناصر الداخلية لمنظومة اللغة: نظام القواعد العربية ـ نظام المعجم العربي ـ معالجة اللغة العربية آلياً، وهذا ما يجعل الكتاب اجتهاداً مهماً في مواجهة تحدي المعلوماتية للثقافة العربية على الرغم من استغراقه في الافتراضات النظرية، وعلى الرغم من حاجته إلى الاشتغال التطبيقي ضمن أفراد وفرق عمل.

3- اللغة العربية وبعض ممهدات العولمة:

بات واضحاً أن ممهدات العولمة مرتبطة بالاستعمار والاستهدافات والهيمنة على العرب والمسلمين، ومنها محاربة اللغة العربية، كما هي الحال في استعمار العقل والثقافة واللغة، وإشاعة اللغات غير العربية كالفرانكفونية وسواها :

3-1- استعمار العقل، استعمار اللغة:

نتج عن تحديات العولمة، مخاطر كثيرة لابدّ من احتساب شروط مواجهة فعالة لها، ولاسيما مخاطر التبعية والتغريب والتنميط والغزو، وهي تعبيرات متداخلة تشير إلى تحول الاستعمار التقليدي المباشر بالأسلحة التقليدية المعروفة، إلى استعمار حديث غير مباشر، هو الأخطر، بالأسلحة المعرفية التي تتطور بسرعة ماحقة، وهو ما سماه الأديب الإفريقي نغوجي وأثيونغو «استعمار العقل»، وهو يبدأ من اللغة، لأن الخلل اللغوي والثقافي، باستعمال اللغات الإمبريالية أو الاستعمارية وثقافاتها هو خلل علاقة مع المستعمر أو الإمبريالي المهيمن والغاشم، وهذه اللغات والثقافات هي أدوات للعولمة، أشد نفاذاً وتأثيراً.

سأنطلق من تجربة هذا المبدع الإفريقي الذي أرقته طويلاً معضلة الأصالة، فحرص على هويته القومية والوطنية باستعمال لغته الإفريقية، فأهدى كتابه، امتناناً لكل أولئك الذين يكتبون بلغاتهم الإفريقية، ولكل الذين صانوا، على مرّ السنين، كرامة الآداب والثقافة والفلسفة والكنوز الأخرى التي حملتها اللغات الإفريقية، أي أنه عدّ الكتابة باللغة القومية أو الوطنية الأم تعبيراً عن التشبث بالكرامة.

كتب نغوجي واثيونغو (غالباً باسم جيمس نغوجي، وهو اسم متغرب مستلب) أعمالاً روائية ومسرحية وقصصية كثيرة مهمة باللغة الإنجليزية، وعمل فترة طويلة رئيساً لقسم الأدب بجامعة نيروبي في عاصمة بلاده: كينيا. وقد ترجمت إلى العربية أكثر من ثمانية كتب له في القاهرة والكويت ودمشق وبيروت، وفي عام 1977 أدرك أن التخلي عن الكتابة بلغته الإفريقية يعني استمرار استعمار العقل، فرأى أن يودع الكتابة بالإنجليزية خطوة في طريق طويلة لتصفية استعمار العقل، فصرح آنذاك:

«في عام 1977 نشرت «**تويجات الدم**». وقلت وداعاً للغة الإنجليزية، واسطة لكتابة مسرحياتي ورواياتي وقصصي القصيرة.. أما هذا الكتاب فهو وداعي للإنجليزية باعتبارها واسطة لأي من كتاباتي»[17].

وهكذا وضع واثيونغو يده على المعضلة أو الخلل المركزي في هذه التجربة. وهو خلل لغوي، في ظاهره، عميق وشارخ للذات في جوهره، أقصد استعمال لغات غير إفريقية، بالنسبة للكاتب الإفريقي بعامة، إذ يوضح أن هذه المعضلة جزء من نقاش مستمر على امتداد القارة حول مصير إفريقيا. والمروع أيضاً في هذه المعضلة، وهذا ما يريده الغرب ويشجع على انتشاره، على أن استعمال الكتابة بلغة غير قومية أو وطنية لا ينفصل عن شؤون القارة الإفريقية وشجونها، شأن الأطراف الجنوبية جميعها حول المركز الأميركي والأوربي الشمالي، كأن يوضع المسلم ضد المسيحي، أو «الكاثوليكي» ضد «البروتستاني»، حين يصعب تصنيف الناس في «قبائل». ويضيف واثيونغو بأسى:

«حتى الأدب نفسه يجري تقويمه، أحياناً، بموجب الأصول «القبلية» للمؤلف، أو التكوين والأصل «القبليين» لشخصيات هذه الرواية أو تلك المسرحية. هذا التفسير المبتذل للحقائق الإفريقية شجّعه الإعلام الغربي الذي يريد أن يُزيغ الناس عن رؤية أن الاستعمار ما يزال السبب الأساس للعديد من معضلات إفريقيا. وقد وقع، لسوء الحظ، عدد من المثقفين الأفارقة ضحايا لهذه الخطة، وإلى حدٍ لم يعد فيه بعضهم قادراً على الشفاء، ولا على معرفة الأصول الاستعمارية ذات قاعدة «فرق تسد» في تفسير الاختلافات الثقافية والصدامات السياسية تفسيراً يستند إلى الأصول الإثنية للمختلفين».

كانت المقاربة مختلفة، فالحقائق الإفريقية «متأثرة بالصراع الكبير بين قوتين متضادتين في إفريقيا اليوم: تراث استعماري من ناحية، وتراث مقاوم من الناحية الأخرى. التراث الاستعماري في إفريقيا اليوم تحافظ عليه البرجوازية العالمية مستخدمة الشركات متعددة الجنسيات، وبالطبع، الطبقات الحاكمة الملوحة بالعلم الوطني. وتنعكس التبعية الاقتصادية والسياسية لهذه البرجوازية الإفريقية النيو- كولونيالية، في ثقافتها، ثقافة القردية والببغاوية، المفروضة على شعب متململ،

بجزمات الشرطة، والأسلاك الشائكة، ورجال الدين والقضاء ذوي العباءات. إن الحصيلة النهائية لكل هذه الضربات، مهما كان وزنها وحجمها ونطاقها ومكانها وزمانها، هي التي تشكل التراث الوطني »[18].

إن جوهر تجربة واثيونغو، علامة على تجربة إفريقية واسعة وشاملة، هي أن اللغة القومية والوطنية لا تنفصل عن الهوية، وإن نفي اللغة من شأنه أن يجعل **التقليد الأجنبي المعولم** مهيمناً على الأطراف المستلبة بتخليها عن **تقليدها القومي في اللغة، في الثقافة والمعتقد والتاريخ والمعرفة والعمران الإنساني والاجتماعي**. ولعل تشخيص الأمر يتبدى واضحاً في مثل هذه الإشارة:

« قبل الاستقلال، كان التعليم في كينيا، أداة للسياسة الكولونيالية يقصد منها تعليم شعب كينيا قبول دوره باعتباره مستعمراً. لذا فإن النظام التعليمي غداة الاستقلال كان إرثاً من الكولونيالية، ومن هنا تركزت المناهج الأدبية على دراسة تراث أدبي إنجليزي يقوم بتدريسه معلمون إنجليز. إن وضعاً مثل هذا يعني أن الأطفال الكينيين يجري تغريبهم عن خبرتهم الخاصة، وعن هويتهم في بلد إفريقي مستقل »[19].

ثمة إشارة دالة في علاقة كينيا مع تراث الحضارة العربية تظهر أن القطيعة اللغوية تشكل في المآل الأخير قطيعة معرفية وتاريخية شاملة، كما في هذه الوثيقة من مؤتمر نيروبي حول «تدريس الأدب الإفريقي في المدارس الكينية» المنعقد عام 1974:

« إن الحضارة العربية التي يبلغ عمرها قروناً كان لها تأثير هائل في أدب شمال إفريقيا الحديثة، وفي أجزاء عديدة من القارة. وقد حرّم مربونا الاعتراف بهذا التأثير، وأهملوا أدب شمال إفريقيا والعالم العربي »[20].

تفيد هذه التجربة أن النضال اللغوي القومي والوطني نضال من أجل الهوية الثقافية في مواجهة هيمنة الشمال المعولم. ولا يخفى أن النقد الأقسى للخطاب الكولونيالي صادر عن المركز نفسه، من إدوار سعيد إلى عشرات النقاد والمثقفين الذين ولدوا في المستعمرات أو العالم الثالث أو الدول التابعة، ثم طوروا مناهجهم في الجامعات والمؤسسات الغربية أمثال غاياتري شاكرا، وفورتي سبيفاك، وهومي بابا، وإعجاز أحمد، وقمقم ساري، وعقل بلغرامي، وبيتيا باري، وما جوهر نقد الخطاب الكولونيالي إلا استجوابه و « تدقيق الوسائل التي أتاحت لأوربا فرض وصيانة خطابها في سياق إخضاعها لثلاثة أرباع البشر يقطنون العالم الراهن ». ولا شك في أن نفي الخصوصيات اللغوية في مقدمة هذه الوسائل.

هل ثمة من يماري بعد ذلك أن مخاطر العولمة تمتد من اللغة بالأساس إلى نفي الخصوصيات الثقافية والتراث الثقافي القومي.

3-2- اللغة العربية والفرانكوفونية ومثيلاتها :

إن مواجهة تحديات العولمة تقتضي التأمل الموضوعي للفرانكوفونية في سياقاتها الجديدة : اللغة الفرنسية تستوعب الفعاليات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية الأخرى.

باديء ذي بدء، لا أصادر على المطلوب بالقول : **إن الفرانكوفونية خطر كلّها على استعمال اللغة العربية في مناحي الحياة كافة، فثمة منافع لا يمكن إغفالها في التفاعل الثقافي مع تراث الإنسانية الفكري والعلمي والأدبي والفني مما كانت اللغة الفرنسية أداته الفضلى خلال أكثر من خمسة قرون إلى جانب اللغات الأوربية الصاعدة في تلك الفترة مثل الإنجليزية والألمانية والإسبانية، بل إن حشداً من الأدباء العرب اختاروا الكتابة بالفرنسية من غالبية الأقطار العربية**، وتوّج القائمة الروائي السعودي أحمد أبو دحمان بروايته «الحزام» (2000) .

إن إحصاءً أولياً للأدباء العرب الفرانكوفونيين لا يصدق للوهلة الأولى، مثل قوت القلوب الدمرداشية، والبيرقصيري، وأندريه شديد، وأحمد راسم، وجورج حنين، ويوسف يعقوب، ويعقوب آرتين، وسيلين أكسلوس، وجان أركاش، وفوزية أسعد، ورامول بارم، وروبير بلوم، وفرانسوا بونجان، واجوستينو جون سياتيفو، وألبير جوزيوفيشي، وجيهان فراوي، وسيريل دييو، وأليك سكوفي، وماريوس شميل، وألبير عدس، وتوفيق العقاد، وواصف بطرس غالي، ونيللي فوشيه زنانيري، وجان موسكانيللي، وجويس منصور، وسليمة تيه، ورمسيس يونان وغيرهم من مصر، وجورج شحادة، وأمين معلوف، وفؤاد أبو زايد، وألفريد أبو سليمان، وجومانة أحدب، وبلانش آمون، وإيفلين بطرس، وجاك ثابت، وبول جماتي، وفرج الله حايك، وفيكتور حكيم، وإدمون سعير، وميشال شيحه، وخليل غانم، وميشيل غريب، وشكري قرداحي، وهكتور قلت، وشارل كورم، وشارل كوري، وشكري غانم وغيرهم من لبنان . وهناك عشرات الأسماء من سورية وفلسطين والأردن ومن المهاجر، وهؤلاء المشارقة يفوقون المغاربة عدداً في المغرب وتونس والجزائر وموريتانيا .

هناك العديد من أضرار التخلي عن اللغة العربية في الثقافة والفكر والإبداع والفن، كلما تكاثرت الكتابة بلغات خارجية، ولننظر على سبيل المثال في كتاب محمود قاسم بالعربية، وعنوانه «الأدب العربي المكتوب بالفرنسية» (الصادر بالقاهرة عام 1996)، وهو لا يغطي إلا مساحة محدودة من الكتابة العربية بالفرنسية، فقد أبدى هذا الباحث ملاحظة في محلها هي أن هذا الأدب قد احتضنه الفرنسيون، وقدموا عنه الكثير من الدراسات، بينما ندرت مثيلاتها في الوطن العربي، وأشار في الوقت نفسه إلى معضلة من معضلاته هي تحدي لغة من يكتب عنهم هذا الأديب أو ذاك، إذ كتب غالبية هؤلاء حوارهم بالعامية العربية ثم ترجموه

إلى الفرنسية، «قد اتضحت هذه الظاهرة في روايات من طراز «نوم الخلاص» و«اليوم السادس» لأندريه شديد. حيث أن أبطالها يسكنون البيئات الشعبية. ويستخدمون مصطلحات شعبية في المقام الأول. وتبدو هذه الكلمات واضحة لدى متابعتها. ولاشك في أن من قام بترجمة مثل هذه الروايات سوف يقع في حيرة أمام ترجمتها إما بالفصحى أو العامية. وقد حدث هذا لمترجم رواية «نوم الخلاص» المنشورة في روايات الهلال عام 1991. والغريب أن القارىء لم يستسغ هذه اللغة، باعتبار أنه أمام أدب مترجم. ولذا، فإن كاتب هذه السطور قد وقع في نفس الحيرة وهو يترجم روايات «شحاذون ومعتزون» و«منزل الموت الأكيد» و«العنف والسخرية» لألبير قصيري إلى اللغة العربية. واختار اللغة العربية البسيطة خاصة عند ترجمة الحوار، على الرغم من أنه يعرف أن في هذا قصوراً واضحاً»[21].

إن الكتابة بالفرنسية لا تشكل خطراً بذاتها على العربية ما لم تندغم بأبعاد سياسية، وتثير في تضاعيف هذه الأبعاد مخاطر مثل الهيمنة، والتغريب، وجلد الذات القومية بتأثيمها والاستعلاء عليها ونفي الهوية وغيرها من العقابيل الناغلة في الروح.

لقد تحسست فرنسا تراجع استعمال الفرنسية في البلدان الفرانكوفونية، فضاعفت اهتمامها بتعليم الفرنسية ونشرها وعمليات الإنتاج العلمي والفكري والأدبي والفني والتعليمي بها، ونظمت لها الجوائز والتظاهرات والدورات والحلقات الدراسية والبعثات، ليس لطلاب تعليم الفرنسية فحسب، بل للمترجمين والباحثين والأكاديميين على نفقة الحكومة الفرنسية، ثم بلغ الاهتمام ذروته عندما تحولت الفرانكوفونية إلى مجموعة سياسية مع مؤتمر القمة السابع للفرانكوفونية (هانوي 14/11/1997)، تطلعاً لأن تكون الفرنسية لغة رئيسة للإنتاج العلمي والفكري والاجتماعي والسياسي، وأذكر في هذا المجال بعض مواد إعلان هانوي النهائي لدلالتها القاطعة في هذا السياق:

- **نعمل على تكثيف جهودنا في التشاور، في الإعلام، وفي التدريب، من أجل بث الحيوية في تعاوننا ومساندة جهود بلادنا من أجل تنمية مستديمة، مرتكزين على استثمار وتقاسم مكتسباتنا العلمية والتقنية**، خاصة في العمل على تطبيق مخطط عمل «مونتريال» المكرس للتقنيات الجديدة في الإعلام والاتصالات.
- **نقرر تسويق التبادل الثقافي في الفرانكوفونية بكل أشكاله وتسهيل تنقل المبدعين وتدريبهم**، وتأمين تبادل أعمالهم ووصولهم إلى المساعدات والمؤسسات الفنية والثقافية في كل الدول.
- **نعترف بضرورة الإسراع في تقوية البعد الاقتصادي للفرانكوفونية من أجل جعلها مكملة للإمكانيات الثقافية والسياسية، وأكثر فاعلية للإجابة عن متطلبات التنمية لشعوبنا**، كما يشير إلى ذلك عنوان قمة هانوي: «تقوية التعاون والتضامن الفرانكوفوني من أجل السلام والتنمية الاقتصادية والاجتماعية».

– ندعو كل الدول، المنظمات والمساهمين من العائلة الفرانكوفونية إلى الاستفادة من الطاقة الغنية التي يقدمها تعاوننا المتعدد الأطراف في مجال الموارد الإنسانية، في خدمة النمو، وإلى دمج المجتمع الأهلي في هذه المسيرة، خاصة الشباب والنساء.

– نقرر إضافة الإمكانيات الاقتصادية التقنية والإنسانية الضرورية، على التعاون الفرانكوفوني المتعدد الأطراف بواسطة تطبيق مخطط العمل الذي نعتمده اليوم .

سبق انعقاد قمة هانوي اهتمام كبير وانشغال عميق باعث على الحيرة لدى الفرنسيين في مآل التراجع الواضح للفرنسية في العالم، فصدرت آنذاك عدة كتب لمجموعات من المؤلفين الفرنسيين والفرانكوفونيين، لعل أبرزها «أية فرانكوفونية للقرن الحادي والعشرين» (منشورات كارتالا ـ باريس 1997)، ولا يخفى النزوع الاستشرافي لتطوير الفرانكوفونية في بحوث هذا الكتاب، أما أبرز العقبات عندهم فهي أن المجتمع الفرنسي يشهد، كباقي المجتمعات، مثاقفة أميركية هوجاء، جعلت البعض يشير إلى أن اللغة الفرنسية في الآفاق المقبلة ستصبح في عداد الديناصورات.

من الواضح أن منظمة الفرانكوفونية تسعى جاهدة، لاستعادة هيمنة الفرنسية لغة أولى ورئيسة في البلدان الفرانكوفونية، ونجاحها، فيما أرى، دونه أهوال وأهوال، وهو جلي في المشرق العربي، أما البلدان المغاربية فتؤشر إلى المآل إياه، ومثاله الجزائر، فقد تدنى عدد القراء بالفرنسية إلى حدود غير مرضية بالنسبة للمفرنسين، وهذا مثال واحد بسيط (لا يصل عدد قراء الجرائد الفرنسية كلها في الجزائر إلى عدد قراء جريدة «الخبر» وحدها).

إن فحوى هذا المآل الخاسر بالتدريج هو أن الفرنسية تواجه تحديات العولمة والمعلوماتية مثل غيرها من اللغات الحية الأخرى أمام الإنجليزية، ولا تختلف في هذا السياق عن العربية، مما يؤدي إلى تفضيل البعد «البراغماتي» في استخدام اللغة لدى الكثيرين، ويعود بأهل اللغة إلى التفكير الجذري والحقيقي بهويتهم اللغوية والثقافية وفعاليتها الراهنة والمستقبلية.

إنهم يخدمون لغاتهم، بينما نهمل لغتنا جهلاً أو تجاهلاً. وثمة مثيلات للفرانكفونية لا سبيل إلى تعدادها وتبيان موضعها في المعضلات الراهنة والقادمة.

3-3- التعريب والتغريب:

صار التعريب قبل أكثر من عقدين من الزمن حقيقة حية، وصار مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي (مقره الرباط، وهو أحد مؤسسات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وأصدر مجلة هامة هي «اللسان العربي» المحتجبة) فعالاً في تعزيز البعد الحضاري والسياسي والفني للتعريب، بما هو توحيد المناهج الفكرية والعلمية والانتماء إلى كيان حضاري واحد تعوقه عوائق اللهجات

أو اللغات الأجنبية، بتعبير محمد المنجي الصيادي (تونس)، وهو صاحب أهم دراسة عربية عن «التعريب وتنسيقه في الوطن العربي» (مركز دراسات الوحدة العربية بيروت1980). وقد حددت تلك الدراسة الرائدة منهجية المصطلحات العلمية في إشكالية تعريبها و حدود التعريب ومفهومه، و مسوغات إنشاء مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي وكيفيته الإدراية والعملية التي تتجه إلى المجالات التالية: التنسيق بين المعاجم، التعريب والأبحاث في الألسنية، التعريب والأبحاث في علم الدلالة، التعريب والأبحاث في علم النحو، التعريب وقضايا اللهجات، التعريب والعلاقات بين الدين واللغة والأدب، التعريب والقضايا الحضارية، اللغة العربية في العالم ووضعية الدراسات العربية والاسلامية في الحواضر العالمية.

ألقى الصيادي نفسه محاضرة ذات دلالة كبيرة في التعريب ومآله الراهن والمستقبلي في ندوة « التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية» (مركز الدراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1982)، ورأى فيها خصائص للتعريب في المغرب الذي يواجه وضعية شديدة الخصوصية بالنسبة لبلدان المشرق، «تفيد نقل كل ما هو أجنبي إلى العربية»، أي أن التعريب المغربي يشكل قضية شاملة تتعلق بنسب متفاوته بالهوية الوطنية والتراث والشخصية والأصالة العربية الإسلامية التي تنتسب إليها أقطار المغرب العربي، كما أنه يتضمن ظاهرة التفتح على الحضارة الأجنبية، ولا سيما الثقافة الفرنسية، طلباً للاثراء الفكري. وتتسع هذه القاعدة المعممة للتعريب الفاعل إلى خطة كبرى تستهدف بالازدواجية الاستعمارية. ونحن نفضل تسمية هذا الواقع اللغوي الذي ما زالت تعيشه نسبياً أقطار المغرب «الثنائية اللغوية» في التعليم والإدارة والمجتمع، علماً وإثباتاً لواقع المواجهة القائمة بين العربية والفرنسية. ولنصطلح على تسمية الاختلاط الموجود بين الفصحى والعامية «الإزدواجية العربية». «ولا يفوتنا أن نلاحظ في هذا الباب التفاعل القائم بين مظهري اللغة العربية، وكذلك التفاعل المتواصل بين العربية الفصحى وبعض اللغات الأجنبية خاصة الانكليزية (والامريكية) والفرنسية، سواء أكان في اقتباس الكلمات الحضارية والعلمية، أم في انتقال التراكيب وأساليب الكتابة إلى المعاني المحدثة»[22].

يلاحظ أن التعريب وضع في مواجه التغريب منذ بداية الوعي بهذه القضية على أنها مظهر أيضاً من مظاهر الغزو الثقافي الأجنبي، وبغض النظر عن الاختلاط في فهم البعد السياسي للتعريب في البلدان المغاربية الذي يدغم التعريب بمحاولات التعتيم على حضارة طمسها الإسلام قبل قدومه، وأقصاها العرب قبل «عوربة» المنطقة، فإن مخاطر التغريب أشد وأقسى من الاطمئنان إلى التعريب، ويشير التشخيص المبكر للصيادي إلى معضلة ناجمة عن التعريب الجزئي، مما هو حاصل في البلدان المغاربية، فقد ألبست قضية التعريب أبعاداً سياسية ليست لها تتصل باللغة الفرنسية أو الأمازيغية، لأن واقع الحال لا يضع التعريب في مواجهة العربية للغات الأخرى، فليست العربية صراعاً مع وجود لغات أخرى:

« وعلى هذا، يمكن إدراك الجهود المبذولة من أجل إعادة بناء الهوية الثقافية على أسس وطنية وقومية عربية، وأحسن ما تجسم فيها التعريب .وهي ما زالت تطمح إلى القضاء على بنى التبعية التقليدية القائمة بين الدولة الأجنبية والدولة الباحثة عن أسباب الرقي والثراء الفكري. فنشأت ونمت في ضوء هذا الوضع جدلية بين الاتجاهين، اتجاه جماهيري عروبي واتجاه نخبوي. وطني انتقائي يميل إلى المحافظة على الأوضاع القائمة في التعليم والإدارة ويعيش في محيط اجتماعي شبه مغلق على الواقع المحلي و« متفتح » على الحضارة الأوروبية بلغتها الفرنسية دون غيرها من الخيارات الحضارية الموجودة في العالم، وذلك ترسيخاً لمصالحه المكتسبة وتكريساً لطموحاته المقبلة. ويتمخض عن هذا السلوك الانفرادي العازل غير السوي نفسانياً، التخلي عن القيم الأصيلة في المدى القريب، وتفسخ الشخصية الوطنية والقومية في المدى البعيد. لكن حتميات التربية ووقائعها المعيشية يومياً حتمت الإبقاء على اللغة الأجنبية ولو بصورة انتقالية إلى أن تتحقق الآمال المعقودة على منجزات التعريب الجزئي، ترقباً لتنفيذ التعريب الشامل الذي يبدو مطباً عسير المنال في الوقت الحاضر »[23] .

لقد جعل التعريب الشامل، كما لا حظنا في تجربة الجزائر مع دستور 1988، يستثير ضغائن هؤلاء المسيسين لقضية التعريب على أنها تهديد لوجودهم، بينما تتيح النظرة «البراجماتية» مزيداً من التعايش اللغوي القائم على التعددية، فليس التعدد اللغوي معادلاً لتعدد فئوي أو سبيلاً للهيمنة القومية والوطنية، فالمسألة أعقد من ذلك بكثير، وإنني أتفق مع القائلين بأن « أبعاد التعريب أعمق من مجرد الوقوف عند قضية المصطلحات ووضوحها وتوحيدها وربط ذلك بوجوب احترام مستوى التعليم العربي، والرفع من المحصول العلمي والحضاري للطالب العربي. ومبتغانا هو فك حلقة التبعية الثقافية المجحفة، والتأكيد بأنها تكتسي صبغة وقتية. ذلك أن مبدأ هذه التبعية لا يمكن أن يكون عاماً شاملاً، بل له صبغة نسبية مرتبطة بالوضع السياسي لكل قطر عربي. ولا يمكن لمجتمع أن يخضع برمته للنهل من الثقافة الأجنبية، مهما توخت من أساليب تشويقية للوصول إلى عقله ووجدانه، لأن الثقافة مجموعة من القيم الحضارية لا تستساغ إذا كانت غريبة عن المقبل عليها. وينطلق البحث في مفهوم التبعية من افتراض وجود ظواهر منها مغروسة بين أفراد أو جموع تلقوها واستوعبوها بدرجات متفاوتة. ويأتي التعريب درعاً واقياً من التفكك الثقافي، لأنه يرمي إلى غرس عروبة الفكر والمحيط، فيكون سباقاً متجهاً إلى الجموع الغفيرة من المواطنين العرب (برامج إذاعية وتلفزية ذات أبعاد عربية مثلاً). ويطمح التعريب إلى استرداد الهوية القومية، فيشكل بذلك المعركة الأخيرة للتحرر الوطني والقومي من وجهة الفكر والوعي. وتحتل العربية الدور الحاسم كأداة معقلنة ممنطقة توحد بين الأقاليم العربية، وتعمل للقضاء على الشذوذ السلوكي لأفراد من النخبة ينتمون لقيم حضارية أجنبية تتنافى وحتميات النهوض العربي »[24] .

لطالما ردد المعترضون على التعريب ضيق العربية عن قابليات المواكبة المصطلحية والعلمية والتقنية للتطور العلمي والتقني الهائل، غير أن تجربة سورية، على سبيل المثال، منذ عشرينيات القرن العشرين تشير إلى صوابية تعريب العلوم والمعارف والتقنيات والاتصالات وصلاحيتها المستمرة في التعليم الجامعي والعالي وفي مناحي الحياة كافة، مثلما تشير تجربة مصر مع انتشار الانجليزية، ولبنان مع انتشار الفرنسية والانجليزية، وسورية مع انتشار الروسية إلى أن اللغات الحية ورواج استخدامها العلمي والتقني يدعم التعريب من نواح أخرى.

ولا يخفى أن تجربة الجزائر في مواصلة التعريب وتعميم استعمال اللغة العربية (القانون رقم 91–05 مؤرخ في 30 جمادى الثانية عام1411هـ الموافق 16 يناير سنة 1991 والمعدل والمتمم بالأمر 96–30 المؤرخ في 10 شعبان عام 1417 هـ الموافق 21 ديسمبر 1996)، قد لقي معارضة صامتة ما لبثت أن أعلنت عدائية خلال العام الذي تلا اليوم المقرر لتتويج استكمال عملية تعميم استعمال اللغة العربية، وهو يوم 5 يوليو2000، ومنها المظاهرات المدوية والدامية خلال شهور أيار وحزيران وتموز 2001، وهي في جوهرها معارضة عدائية سياسية لبست لبوس معركة التعريب، ويؤيد ذلك الشجن القومي العميق الضارب الجذور كما تظهره في الوقت نفسه سلسلة القوانين المؤيدة لوجوب تعميم استعمال اللغة العربية في قوانين الجمهورية الجزائرية[25] .

هل علينا بعد ذلك أن ندعو لأن تكون سياسة التعريب أبعد من نشر اللغة العربية والعلوم الحديثة بين العرب بتعريب تقنيات المعلومات وتيسير انتشارها وتداولها باللغة العربية؟

3–4– حول فرضية الحتمية اللغوية:

يندرج تحديث المعلوماتية في العولمة، بمعنى الوعي الجديد بعلاقتنا بالآخر الغربي، منتج التكنولوجيا والمعلوماتية والمتحكم في هذه المنتجات باستعمالاتها المختلفة. ولما كانت العولمة إطاراً كونياً لاستخدام الثروة والقوة بوساطة التحكم بهذه المنتجات كونها أسلحة تفوق الأسلحة التقليدية والذرية: «التكنولوجيا»، المال والاقتصاد، فإنها تندغم في مفهوم الاختراق القومي والوطني ومفهوم السيادة فيها، ويتضمن ذلك أيضاً اختراقاً للمنظومات المعرفية بوصفها سلطاناً أقوى: اللغة، الثقافة، التاريخ، المعتقدات، الموروثات الشعبية. إنها سلطة المعرفة المسلحة بالتفجر المعلومياتي والاتصالي.

أشير إلى بعض مخاطر العولمة على النطاق اللغوي، فاللغة شديدة الاتصال بالأنساق الثقافية التي تعبر عن جوهر التقليد القومي بحمولته الذهنية والعقائدية والتاريخية والاتصالية، ولا يعني ذلك خضوعاً لما يسمى بالحتمية اللغوية، بل هو سيرورة للخصوصيات اللغوية، وهي أبعد من مجرد الأداة. وناقش هذه القضية الشائكة عبد الله حامد حمد (السعودية) مفنداً دعواها الباطلة التي تمتد إلى أبعد

من حدود اللغة والثقافة إلى توظيف دعاوي يجعل بعض اللغات أدنى من سواها، بل هناك من يسيّد اللغات المهيمنة بتأثير سلطات معرفية مدعمة باختراقات القوة للخصوصيات الثقافية القومية والوطنية، وقد سعى هذا الباحث إلى تقويم فرضية الحتمية اللغوية، وأبدى بعض المفاهيم والحجج النافية لإطلاقيتها في رؤية اللغة بين الثبات والتغير، مثل صعوبة أن تكون الرؤية الواحدة محصورة بلغة واحدة، أو أن الصمّ يفكرون من دون لغة، أو أن تغير اللغة لا يرتب تغيراً في الفكر، أو أن الترجمة ممكنة بين اللغات . .إلخ .

لا يخفى أن مناقشة فرضية الحتمية اللغوية لا تتحدد بالنظرة الميكانيكية التي تجعل من النظام اللغوي نظاماً فكرياً، فاللغة بذاتها لا تعطي وحدها صورة للعالم، ولكنها شديدة التأثير على تكوّن النسق الثقافي، ولاسيما خصائصه المعرفية والعقائدية والاتصالية، أي أن الحتمية اللغوية مستهجنة، وتؤدي إلى القبول بنفي الخصوصيات الثقافية لاستنادها إلى خصوصيات لغوية ضاربة الجذور في التاريخ الإنساني والاجتماعي والثقافي، وفي الوقت نفسه، فإن الحتمية اللغوية تتعارض مع رحابة الاحتمالية التي تراعي التواشج بين عناصر الثبات وعناصر التغير في الأنظمة اللغوية .

لقد جاوزت النظريات اللغوية والمعرفية الحديثة فرضية الحتمية اللغوية، بل إن هاتين النظريتين الحديثتين شكلتا ثورة فكرية تمخض عنهما «أفكار ومفاهيم جديدة عن اللغة فيما يتعلق بتعريفها وتنظيم مكوناتها واكتسابها ومعرفتها»، ودور العوامل الفطرية في ذلك، وعلاقات اللغات ببعضها البعض . وثورة أخرى في علم النفس تمخض عنها هجر أفكار ومفاهيم قديمة، وطرحت أخرى جديدة متعلقة بالمعرفة Cognition، وكذلك دور العوامل الذهنية الداخلية والخارجية في عملية التفكير . هاتان الثورتان هزتا أركان فرضية الحتمية اللغوية . فاللغة التي تحدث عنها « وورف » ذات المفهوم الضيق والسطحي لم تعد هكذا اليوم . فهناك اليوم ما يعرف باللغة الداخلية Internalized . بالإضافة إلى ذلك، فإن التفكير بتعريفه التقليدي والسلوكي لم يعد قائماً . بل ما تؤكده الدراسات اللغوية والمعرفية هو أن العقل البشري مقسم إلى وحدات مستقلة « Modules or Faculties »[26] .

ولعلي لا أوافق القائلين بعد ذلك بأن فرضية الحتمية اللغوية، على سبيل الإطلاق، تنفي دور اللغة في صياغة الفكر، لأن الخصوصيات الثقافية تتبادل التأثير مع الخصوصيات المعرفية واللغوية، أي أن اللغة جاوزت حدّ الأداة إلى كونها وشيجة تعبير فكرية وعقائدية وتاريخية .

لقد اتخذ دعاة العولمة من الحتمية اللغوية رهاناً على التشكيك بجدوى استعمال اللغات القومية والوطنية، وتقوم هذه النظرة على عنصرية واضحة تُتهم فيها اللغات العريقة بالمحدودية والفقر، وأنها لا تواكب العصر ومعارفه وتقاناته . **وترتكز هذه النظرة الدونية للغات الأخرى على وهن طبيعة اللغة العربية مثالاً، وضعف قابليتها للتكنجة اللغوية والأدبية والثقافية، بينما أثبتت اختبارات فرضية الحتمية اللغوية على اللغة أنها أكثر من إطار لصوغ الفكر، وعندما ننظر في بعض المسائل الدالة**

ندرك عقم هذه الفرضية مثل علاقة اللغة بالفكر، فاللغة العربية لغة الوحي والتقليد الثقافي العربي برمته، على أن عناصر الثبات فيها ليست عقبة أمام عناصر التغير الطارئة أو الوافدة، وبالقدر الذي نخدم فيه لغتنا، فإنها قابلة لخدمة تطور المعرفة «**وتكنجة**» الأدب والمعلومات. وثمة مسألة أخرى دالة على ذلك هي سعة اللغة العربية وعمقها الدلالي والاتصالي في النهوض بالأنساق الثقافية القومية، وأشير في هذا الصدد إلى ثراء المستويات اللغوية، من مستوى الحقيقة، إلى تعدد مستويات المجاز، وتعدد المستويات الاصطلاحية، وتعدد مستويات التوظيف الاستعمالي في فكر أو علم أو أدب أو فنّ. وينتج عن وهن فرضية الحتمية اللغوية في مجالات اللغة العربية خصائصها القومية الراسخة كالمرونة والشفافية والحفرية المعرفية (ثراء الدلالة وثراء الاستعمال) مما يجعل من سعتها علامة، وليس مجرد أداة فحسب، على الأنساق الثقافية القومية.

ثمة مسألة ثالثة مثبطة لفرضية الحتمية اللغوية هي أن الإنجاز البحثي اللغوي الحديث قد غيّر كثيراً في النظرة إلى طبيعة اللغات الحية، وكما برهن نعوم تشومسكي في كتابة «مظاهر النظرية النحوية»، فإن النظرية القديمة القائلة «لا علم إلا بالكليات»، تنطبق الآن على كلّ لغة حية، فهناك كليات لغوية هي تعبير، في الوقت نفسه، عن الكليات الثقافية، وتفيد هذه النظرة أن التركيبة الداخلية للغة الحية متشابهة فيما يخص قواعدها التوليدية وقواعدها التحويلية، بينما تبدو التركيبة الخارجية وحدها مجانبة للمعنى، لأن المعنى كامن في علاقات التركيبة الداخلية للغة، ولا يخفى أن للغة العربية نظاماً داخلياً شديد الصرامة والمنطقية والعلمية في قواعده التي تمتد فيما بعد إلى الفقه والمنهج المعرفي والنسق الثقافي برمته.

إن هذا كلّه، يجعل العولمة خطراً على اللغة، حين يُضيّق استعمال اللغة إلى مجرد أداة أو إطار استعمال، لا ضير من استبدالها بلغة أخرى، ثم ما تلبث أن تُعزل عن النظام اللغوي وما يتصل به من أنظمة معرفية وأنساق ثقافية هي التعبير الأمثل عن التقليد الثقافي القومي والوطني.

4- اللغة العربية وبعض تحديات العولمة:

4-1- عن نعمة الكتاب الحوسبي ونقمته في الوطن العربي:

لم يعد هناك خيار في التعامل مع الكتاب الحوسبي؟ **ثمة من يرى أن الكتاب الحوسبي كابوس الناشرين التقليديين، فقد أثار العديد من الكُتّاب والروائيين بنشرهم الحوسبي واحتلال مواقع على «الشابكة» أسئلة مشوبة بمخاطر متنوعة، وفي الوقت الذي يتحدى فيه روائي أمريكي، مثل ستيفن كنج، أوساط النشر التقليدي، فإن مخاوف كثيرة لدى الناشرين الحوسبيين تتبدى في أن الكتب الحوسبية لا تلقى رواجاً بالنظر إلى تكلفتها العالية ومحدودية شاشاتها الصغيرة،** ويفيد هذا الحال أن استخدام الكتب الحوسبية حالياً قليل مع إمكانات السوق. وقد أظهر بحث «لمؤسسة

جوبتير» الأمريكية أن عدد الكتب الحوسبية المستخدمة حالياً (منذ يناير 2001) في الولايات المتحدة يبلغ مائة ألف كتاب، ولكنها تنبأت بأن العدد سيبلغ مليون وتسعمائة ألف بحلول العام 2005 عندما تنخفض الأسعار وتتحسن المحتويات. إن الاشتراط الكامن في لفظة «عندما» باعث على القلق والحذر والترقب.

قد عُقد في يناير 1998 أول مؤتمر أوربي للنشر الحوسبي على خطوط «الشابكة»، ووضعوا استراتيجية لتكامل وسائل النشر التقليدي والحوسبي، على أن ثمة مشكلة حقيقية ظلت قائمة أمام المؤتمرين هي مشكلات حماية حقوق النشر والملكية الفكرية وطرق وضع الشيفرات والرموز لحماية الشبكات الداخلية للعاملين في هذه الميادين.

لا يقتصر النشر الحوسبي على تقانات جديدة لبث الكتاب أو المواد المقروءة على وجه العموم، بل تعداها إلى الإبداع بأجناسه المختلفة، فقد عقد مبدعون وأكاديميون أميركيون في مطلع عام 1996 في مدينة بوفالو التابعة لولاية نيويورك مؤتمراً لمناقشة قضايا الكتاب الحوسبي ووسائل تطويره. وكان المثير والمقلق في انعقاد هذا المؤتمر هو تصريحات منظميه التي يتنبأون فيها بقرب تراجع الكتاب المطبوع لصالح الكتاب الحوسبي، بل تكهن هؤلاء بقرب اختفاء الشكل المألوف للكتاب من جراء مزاحمة الكتاب الحوسبي الذي صار حقيقة واقعة في بعض الدول المتقدمة تقنياً على حد تعبير هؤلاء المنظمين للمؤتمر.

كان أحدهم، وهو «الشاعر الحوسبي» (لاحظوا التسمية) لويس بيكونو جليرز، رئيس مركز الشعر الحوسبي الأميركي، صرح أن مجرد قبول الأوساط الأكاديمية والإبداعية لحضور هذا المؤتمر دليل على الجدية والاهتمام بالكتاب الحوسبي، الذي يقدم خدمات لايستطيعها الكتاب العادي، فالكتاب الحوسبي –حسب قوله– يعطي القاريء إمكانية الاتصال بالمعجم، ومشاهدة صورة الشاعر، وعقد مقارنات مع قصائد مشابهة على صفحة حوسبية واحدة. أما الرواية فسوف تكون قراءتها أكثر متعة على الشاشة نظراً للإمكانيات التي يتيحها الحاسوب، إذ تسمح كلماته الملونة والمؤطرة، بالقفز بين الجمل والعبارات الضرورية دون حاجة للوقوف عند الجمل التي تستخدم على سبيل الحشو، ولاتنتمي أصلاً إلى الكتابة المصفاة والمقطرة. **والطريف في الأمر أن المؤتمر المذكور خصص موضوعاته لدراسة آفاق تطور القصيدة الحوسبية والرواية غير المطبوعة.**

حضرت بالقاهرة ندوة عربية بعنوان «أدب الطفل العربي وآفاق المستقبل» بمشاركة خبراء ومختصين من أحد عشر دولة عربية، وكان موضوع الكتاب الحوسبي أحد أهم الموضوعات الساخنة التي عالجتها الندوة، وقد أثير الموضوع على أنه قضية مستقبلية خطيرة تواجه ثقافة الأطفال في الوطن العربي، فدعا كثيرون في الندوة، وعلى رأسهم الدكتور محمد عبداللطيف إلى شكل جديد للكتاب، اسمه الكتاب الحوسبي، من خلال بحثه إلى الندوة في الجلسة

الختامية التي ترأستها، وخصصت لإخراج كتب الأطفال وتقاناتها الحديثة، وساهم فيها عدد من الخبراء والباحثين أمثال الدكتور مصطفى الرزاز، والفنانة فريدة عويس، والدكتور محمد أبو الخير (مصر) والدكتورة طيبة الشذر (الكويت)، والمربية أنيسة محمد (اليمن).

لقد كان رأيي أن الكتاب الحوسبي أو تعميم استعمال الحوسبة، ومن بعده «الشابكة»، وأثناء ذلك «المالتي ميديا»، وهي الاستعمال المتعدد بتقانات متعددة للوسائط الاتصالية، دون ترشيد، سيؤثر سلبياً على تنمية ثقافة الأطفال، وسيشكل خطراً على نماء الطفل نفسه معرفياً وجمالياً، فقد كان الكتاب المطبوع، ومايزال، المصدر المعرفي الأول، وماتزال الفنون، ومنها وسائل الاتصال بالجماهير، مثل المسرح والسينما والتلفزة والإذاعة، تعتمد على الكلمة، وهي إداة الإبداع الأولى، ويعسر أخذها من غير الكتاب.

لاشك في أن الشكوى والتذمر من مثل هذه المخاطر قد تواترت كثيراً في الموقف التربوي والثقافي في الدول الصناعية المتقدمة تقنياً كاليابان وأمريكا على وجه الخصوص، فترددت صيحات الحذر من انتشار استعمال الكتاب الحوسبي على عقول الأطفال والناشئة وتبلد مشاعرهم وعواطفهم، ناهيك عن سرقة وقتهم قبل سرقة مداركهم وسط الاسترخاء والكسل الذهني.

غير أن التحذير من هذه المخاطر لا يعني إغلاق الأبواب أمام هذه الأشكال المعرفية والترويحية الجديدة مما يتيحه التطور العلمي الهائل للحوسبة في مجال الاتصالات الذي تحول، كما يرى الكثيرون، من مجرد حاسب يقوم بالعمليات الحسابية المنطقية إلى أداة تضم إمكانات عرض النص والصوت والصورة والرسوم المتحركة والفيديو الرقمي، وهو ما اصطلح على تسميته بالوسائط المتعددة (المالتي ميديا) التي تعني المزج، بتعبير آخر، بين سمات الحوسبة والتلفزيون في تناسق وتناغم على أقراص الليزر CD-ROM، وكان وراء هذا التطور العلمي ما يسمى بالثورة الرقمية. وقد واكب هذا التطور زيادة في سرعة أجهزة الحوسبة حتى تستطيع التعامل مع الكم الهائل من الأرقام الناتجة عن تحويل الصوت والصورة والفيديو إلى لغة الحوسبة، فازدادت سرعتها كما زادت ذاكرتها.

ويضيف عبد اللطيف في بحثه المشار إليه تعريفاً بالكتاب الحوسبي وترغيباً به، إن أجزاء الموسوعات الضخمة أصبحت مجرد قرص صغير تتوالى صفحاته على شاشة الحوسبة، فقد أحدث ظهور قرص الليزر ثورة في عالم الحوسبة، إذ جعل منه أداة فعالة في النشر الحوسبي، حيث تبلغ سعة القرص الواحد 650 ميغا بايت، وهي سعة تتيح تخزين نحو 650 ألف صفحة بما يعادل 2000 كتاب تقريباً، أو 20 ساعة من التسجيلات الصوتية تصل بإمكانات الضغط إلى 80 ساعة، أو 5 ساعات فيديو تصل بإمكانات الضغط إلى 15 ساعة، وقد يضمّ قرص الليزر خليطاً من هذه

العناصر كلها. وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف بالصفحة الحوسبية أي التي تحتوي على نص وصوت وصورة، بالإضافة إلى ميزة التفاعل بينها، وبين المستخدم، ومن ثم فالكتاب الحوسبي المنفذ بالوسائط المتعددة، أصبح يضم عدداً من الصفحات الحوسبية، وأصبحت الفرصة متاحة أمامنا الآن لتحويل الكتاب من مجرد صفحات ورقية إلى كتاب ينبض بالحياة، فتسمع وتشاهد عبر شاشة الحوسبة النص والصوت والصورة والفيديو الرقمي والرسوم والموسيقى والمؤثرات الصوتية والتدريبات والأنشطة والألعاب.

يلاحظ دعاة انتشار الكتاب الحوسبي صعوبات كلفته الباهظة، لأن عملية إنتاج كتاب حوسبي بالوسائط المتعددة تشبه إلى حد كبير إنتاج شريط سينمائي، كونها تستغرق الكثير من الوقت والمال والجهد، وتكون النفقة أكبر لدى إضافة المبرمج الذي يضيف التفاعلية بين عناصر الوسائط المتعددة كّلها.

هل أصبحت صورة الكتاب الحوسبي قريبة من الذهن؟ إن المولعين بهذه التقانات يستنكرون أيضاً الحديث عن مخاطر الكتاب الحوسبي، إلا إننا مضطرون إلى التحذير باستمرار، ليس من هذه المخاطر، بل من مخاطر وسائل الاتصال والإعلام التقليدية كالإذاعة والتلفزيون مالم تتكامل مع أجهزة الثقافة والتعليم احتراماً للحق بالثقافة الرفيعة والتكوين الإنساني النبيل، **لأن وسائل الاتصال والإعلام، دون ترشيد استعمالها، تهدد المخيلة، وتبدد الفاعلية، وتبلد الإحساس، وتشوش العاطفة.**

4-2- أهمية تعريب الكتاب الحوسبي العربي:

لا أريد أن أبدي التشاؤم وحده من هيمنة وسائل الاتصال والإعلام على تغطية كل شيء بغطائها وطبيعة خطابها، فليست ثمار ثورة الاتصالات نقمة كلّها، ولكني أدعو إلى ترشيدها وتكاملها مع أجهزة الثقافة والإعلام، بدءاً من معرفتها وفهمها ومعرفة استعمالها إلى ضرورة توظيفها في خدمة التعليم والثقافة، ولايكفي التنسيق وحده هنا، بل يتعداه إلى التكامل المجدي الذي يجعل من ثمار الاتصالات نعمة تخدم التقدم العلمي والثقافي بإطاره الأعم والأشمل والأعمق، فلا يقتصر المرء في تثقيفه على الترويح وقضاء الوقت وتسطيح المعرفة وإلغاء الخيال الإبداعي.

ثمة مزايا للكتاب الحوسبي، مثل استخدام الصوت والصورة بأنواعهما بالإضافة إلى النص في عرض المادة التعليمية والتثقيفية، والتفاعل بين المستخدم والكتاب الحوسبي، ولكنه تفاعل ذو اتجاه واحد ينتج عن اتقان مزج التقانات التي ينهض عليها مفهوم الوسائط المتعددة، وتنمية المهارات الأساسية مثل تعلم القراءة والكتابة والنطق والرسم والتلوين، والتدريب بمساعدة الحوسبة لتعلم اللغات والعلوم والرياضيات، وتنمية القراءات المبكرة، والجاذبية والتشويق في عرض المواد الترفيهية كلعب الأشكال المقطعة والألعاب الضوئية، وهذه المزايا جميعها تتصل بفترة تعلم استعمال «المالتي

ميديا» وأقراص الليزر، وقلة هم الذين يستطيعون أن يبرمجوا، أو أن يتدخلوا في البرامج، أما الأكثرية فستكون تحت رحمة الاستعمال السهل في وضعية استرخاء ذهني وجسدي.

إن «المالتي ميديا» والأقراص الليزرية خاضعة لبرمجتها، ولاتساعد على الفضول لدى مستعمليها كلّهم، وهنا يكمن جانب من جوانب خطرها، وثمة مزية يشار إليها، على سبيل المثال لمزايا عملية وتقنية أخرى، هي أنها تتيح في مجال قصص الأطفال، فرصة تقديم عدة نهايات مختلفة للقصة الواحدة، ومن ثم تكون أكثر تأثيراً وتشويقاً، بل إن كتّاب الرواية أنفسهم الآن يشركون قراءهم في تأليف رواياتهم عن طريق النشر الحوسبي . وعلينا أن نذكر أن هذه النهايات مبرمجة، أي مكتوبة حوسبياً شأن ما يبرمج مسبقاً. والمعول دائماً هو ترشيد الاستعمال، لئلا تطغى على الثقافة الحقة والنماء الأخلاقي والإدراكي والمعرفي والنفسي الذي ينطلق أساساً من المخيلة والبصيرة والواعية، وهي جميعاً تحتاج إلى تربية وتنمية.

من المفيد، أن نتجه دائماً إلى الإنسان حماية له من خلل العلاقة مع ثورة الاتصالات والثورة العلمية ـ التقنية، ولعل هذه المخاطر تتفاقم مع عيوب النشر الحوسبي، وأولها كما أشرنا، التكلفة المرتفعة للإنتاج، وحاجته إلى أجهزة متعددة، وسرعة تطور هذه الأجهزة وبرامجها، وتعدد شركات إنتاجها وعمرها الزمني الذي قد يجعلها في فترة قصيرة غير مجدية.. الخ.

وإذا تأملنا بعض جوانب مشكلات النشر الحوسبي، فإننا سنواجه صعوبات اقتصادية ورقابية وتسويقية أشد، وقد ورد ذكر بعضها على ألسنة الناشرين الحوسبيين، وفي مقدمتهم رئيس جمعية النشر الحوسبي بمصر، مثل:

- عدم وضوح العلاقة بين الناشرين وبين شركات البرمجيات.
- الفئات العالية لعناصر الجمارك وضرائب المبيعات وضرورة الحصول على موافقة الرقابة على المصنفات الفنية.
- عدم تواجد نظام قياسي لتشغيل الوسائط المتعددة.
- خدمة مابعد البيع (الدعم الفني) لمواجهة المشكلات التي قد تظهر أثناء تشغيل الكتاب الحوسبي على أجهزة الكمبيوتر المختلفة.
- ضعف خبرات النشر الحوسبي العربية... الخ.

ثمة مشكلة أخطر في الإطار نفسه يتحسسها المشتغلون بالنشر الحوسبي والمنتفعون من مزاياه، وهي أنك لاتستطيع أن تنقل الكهرباء معك إلى الخلاء على سبيل المثال، ولست مضطراً إلى الأجهزة الكثيرة، بينما تكتفي بالكتاب المطبوع في أية وضعية، وتقرأه في أي مكان.

وفي أمريكا نفسها، علق بعضهم على مؤتمر قضايا الكتاب الحوسبي ووسائل تطويره قائلاً: إن الكتاب الحوسبي سيحدث ثغرة في المعرفة الإنسانية، ويلغي قسماً من الذاكرة البشرية التي تتوارث الأجيال معارفها منذ قرون طويلة بوساطة الكتاب المطبوع.

وألمح بعضهم إلى وجود حلف غير مقدس بين منتجي (التقنية) وبعض وسائل الإعلام التي لم تعد تبالي بالتطور المنطقي للمعرفة الذي يحتاجه البشر لدعم منطقهم الذاتي والحفاظ على توازنهم النفسي وتحديد مواقفهم من قضايا الوجود. ويعتقد آخرون أن الأدب المطبوع في الكتب هو وحده القادر على صقل النفوس وتغذية الوجدان.

إن الكتاب الحوسبي في سبيله لاستبدال الذاكرة الإنسانية بذاكرة الأجهزة، ولابد من التبصير بمشكلات استعماله قبل انتشاره. وليس المقصود من هذا الحديث كله أن نعادي ثمار ثورة الاتصالات، ولكن مثل هذا التبصير من شأنه أن يجعل الكتاب الحوسبي نافعاً في خدمة الثقافة الرفيعة الحقة.

لا يشكل النشر الحوسبي خطراً على العربية، ثقافةً ولغةً، لدى تعريبه والإسهام الحقيقي في إنتاج هذه المعرفة الجديدة، العلمية ـ التقنية التي جعلت الكتاب حقاً بلا ورق، وبلا حدود، بل أضافت إلى هذه التحديات ارتهان الإبداع نفسه نحو هذه المعرفة الجديدة.

4-3- اللغة العربية وقضية التفكير بالحاسوب:

إن النظر في تحديات المعلوماتية أمام اللغة العربية يستدعي مواجهة قضية التفكير بالحاسوب، كتابة وتثقيفاً واستعمالات تقنية في المهن والأعمال الكثيرة التي يقوم بها الحاسوب. وثمة من يبادر إلى القول إننا ربحنا أشياء مثل السرعة والتخزين والخيارات الآنية ولكننا خسرنا أشياء مثل التدقيق والتأمل والمراجعة الأسلوبية. غير أن القضية أعقد من ذلك بكثير، لأن القضية متعددة الوجوه والإشكاليات من النطق إلى الكتابة إلى الإيصال إلى الابتكار والإبداع مما يتعلق بطبيعة اللغة نفسها وبخصائص اللغة العربية في استخداماتها المعلوماتية، وقد ثبت بالممارسة طواعية اللغة العربية لتقانات المعلوماتية سواء في أساليب معالجة الكلمة والجملة، أم في المعالجة الآلية للكلام المنطوق، أم في تعامل الأجهزة والمعدات مع الحرف العربي، والأهم قابلية اللغة العربية واستطاعتها المثلى لاحتواء النظم الحاسوبية والبرمجيات، مثلما ثبت أيضاً سعة ميادين استخدام اللغة العربية في المعلوماتية كالتوثيق والتخزين والتعليم والتعريب والإبداع والاتصال، فحُلت المشكلات المتصلة بالحرف العربي، وصارت المعدات والأجهزة متوافرة نسبياً، ولاسيما أعمارها ومدى انتشارها الإقليمي والمقدرة على الإنفاق المتواصل عليها لمجاوزة صعوبات إنجاز برمجيات ونظم متداخلة ومتطورة، على أن أمراً آخر لابدّ من مراعاته وتقديره وهو أن النظم الأساسية ونظم

التشغيل في مجملها أصبحت متاحة باستعمال الحرف العربي، وساعد على ذلك اتساع سوق المعلوماتية العربي مما جعل شركة «ميكروسوفت» تتيح للتداول المستمر عدة نظم معلوماتية مكروية تأخذ بعين الاعتبار خصوصيات اللغة العربية، حتى غدا ميسوراً استخدام اللغة العربية في ميادين الابتكار والإبداع والاتصال عن طريق الذكاء الاصطناعي وتطويع الخيال المعلوماتي وتقاناته لحاجات استعمال اللغة العربية.

يذكر محمد بن ساسي (تونس) إشكاليات متعددة لابد للمعنيين باستخدام اللغة العربية في المعلوماتية أن يواجهوها، شأن المشتغلين باللغات الأخرى، بالنظر إلى التقدم الهائل والمتسارع لتقانات المعلوماتية وإمكاناتها الجبارة مثل «الإشكالية التي كانت متمحورة حول الحرف العربي فأصبحت الآن متمركزة حول اللغة ككل من مصطلحات إلى معالجة الكلمات والجمل (استخراج الجذور ـ تطبيق الأوزان ـ وضع خوارزميات للغة) من ناحية، وتوفير تطبيقات تلبي حاجة المستفيد من ناحية ثانية. كما أن التقييس لم يؤدّ دوره إلا في بعض الحالات النادرة، فالمواصفات العربية لم تطبق في غالبيتها، لأن الأقطار العربية لم تتخذ الإجراءات العملية لتطبيقها، ولم تقم بالعمل التحسيسي اللازم. وثمة أيضاً ضعف المصطلحات وفقدانها الذي أصبح عائقاً مهماً أمام تعريب المعلوميات ونشرها والاستفادة منها على أحسن الوجوه»[27].

إن ثمة جهوداً كبيرة مبذولة اليوم بين علماء العربية والمعلوماتية لمواجهة مثل هذه الإشكاليات، وأشير، على سبيل المثال، إلى جهد توصيف العربية، مثلما فعل نهاد الموسى (الأردن)، تمهيداً لإدغام اللغة العربية وقواعدها وخصائصها في المعلوماتية، إذ «يتوجه الوصف بكلّ ما ينظمه من عرض النظام اللغوي إلى الإنسان بما ركب في العقل الإنساني من قابلية لاستدخال هذا النظام بقواعده ومعطياته وآليات عمله في معالجة ذلك وبرمجته. وهي قابلية كامنة في العقل الإنساني تزوّده بحدس قادر على ملء ثغرات الوصف»[28].

مبلغ القول، حسب الموسى، أن الوصف للإنسان وأن التوصيف للحاسوب، فللإنسان حدس، وليس للحاسوب حدس، وللإنسان فهم وليس للحاسوب، حتى الآن، فهم. ويفيد هذا الرأي أن توصيف اللغة (من أجل استخدامها في الحاسوب مثلاً) يتخذ بعدين آخرين: كمياً ومنهجياً. أما الكمي فيتعلق بالذاكرة الحافظة؛ ذلك أن ذاكرة الحاسوب تفوق الذاكرة الفردية من هذه الجهة؛ إذ يمكنه استيعاب معجمات اللغة ونصوصها بل تراثها جميعها، فإذا رتب له المرء مفاتيح ذلك أمكنه استدعاء كل ما شاء من المعطيات التي يشتمل عليها بأسرع وأوسع مما تطيقه الذاكرة الفردية[29].

لو تأملنا فضاءات استخدام اللغة العربية في نظم تشغيل المعلوماتية لهالتنا النتيجة على الرغم من أن مجهودات التعريب، حسب محمد بن أحمد (تونس)، لم تكن في مستوى هذه الأهمية الوظيفية، ويمكن تفسير هذا العزوف بصعوبة الموضوع وبضرورة تشريك أو إقناع مصنعي الحواسيب بهذه الضرورة، فمازال موقف الشركات المصنعة للحواسيب متوسطة الحجم وكبيرته يعتمد على إقرار ضرورة تشغيل الحواسيب في محيط ثقافي مغاير للمحيط الذي شهد نشأتها دون الاقتناع بضرورة استنباط نظام تشغيل يكون عربي التصميم والتطوير والاستفادة.

أي أن مجهودات شركات تصنيع الحواسيب خيّرت الاعتماد على قدرتها الذاتية بالتعاون في بعض الأحيان مع خبرات عربية عاملة تحت لوائها لإصدار نسخ عربية، أو بصفة أدق نسخ من نظم التشغيل قادرة على التعامل مع الحرف العربي تحصيلاً ومعالجةً واسترجاعاً وعرضاً على الشاشات والطابعات على اختلاف أنواعها.

بالرغم من تعدّد المعوقات فإن عزيمة تطويع تقانة المعلوميات في مختلف أبوابها كانت وراء عدد من التجارب لأقلمة نظم التشغيل، وإن توجهت معظم هذه التجارب إلى نظم تشغيل الحواسيب العائلية والحواسيب الشخصية.

لقد باتت تجارب تشغيل المعلوماتية باللغة العربية معروفة، وغدت منطلقاً للتطوير القائم والمستمر من حيث المنهجية والغائية، ولعله من المفيد أن نشير لبعض هذه التجارب:

فالتجربة الأولى تمت بالكويت من خلال مشروع الأستاذ عبدالرحمن الشارخ وشركته «العالمية» التي صنعت حاسوبا عائليا «صخر» يعمل بنظام MSX الياباني والذي تمت كتابته بالعربية مما جعل حواسيب من صنف «صخر» تشتغل في محيط عربي أصيل.

أما التجربة الثانية فهي التي انطلقت ضمن شركة «أليس ALIS» التي بعثها الأستاذ بشير حليمي الجزائري المنشأ بكندا والتي حاولت تصميم نظام عربي ARABIC DOS موائم لنظام MS-DOS المطوّر من طرف بيت البرمجيات الأمريكية MICROSOFT لصاحبها Bill Gates قبل أن تتفق الشركتان على إدماج النسخة العربية ضمن قائمة النسخ المتوفرة بعديد اللغات في نظام التغشيل MS-DOS.

أما التجربة الثالثة فهي التي حاول من خلالها بعض الخبراء العرب من توفير نظام اليونيكس UNIX بالعربية تماشياً مع ما لاحظوه من أهمية متزايدة لهذا النظام، ولسعة استغلاله سواء على الحواسيب الصغرية أم المتوسطة أم الكبرى[30].

ولعلنا بعد ذلك نجاوز الاهتمام بقضية التفكير بالحاسوب إلى المضي عميقاً في تطوير استخدام اللغة العربية واستطاعتها المعلوماتية.

5- خاتمة :

ليست تحديات العولمة ثابتة أو موصوفة، بل هي نتاج التغير الحضاري والعلمي الذي آل إلى احتكار مصادره المؤثرة في عمليات إنتاج القوة الجديدة، قوة الهيمنة والاستعلاء والتكبر نحو المزيد من سيطرة المركز الغربي والأمريكي مركز إنتاج هذه القوة، ونحو المزيد من تهميش أطراف العالم الثالث، وإلغاء عناصر هويتها القومية، ومن أبرزها اللغة.

لقد مهدت لقضية تحديات العولمة إزاء اللغة العربية بآراء متعددة حول مخاطرها الواضحة، ثم أوردتُ نظرة تاريخية لتطور هذه التحديات، وأشرتُ إلى إحدى الرؤى العربية البارزة في مواجهتها، وفصّلت القول في بعض ممهدات العولمة مثل اندغام استعمار العقل باستعمار اللغة والفرانكوفونية ومثيلاتها والتعريب والتغريب وفرضية الحتمية اللغوية، وعالجتُ بعض هذه التحديات مثل النشر الحوسبي وأهمية تعريبه، والتفكير العربي بالحاسوب وتطوير استطاعة اللغة العربية المعلوماتية.

6- الهوامش والإحالات:

1 – بلعيد، صالح: «اللغة العربية والعولمة» في مجلة «اللغة العربية» (الجزائر)، العدد4، 2001، ص115.
2 – القوصي، محمد عبدالشافي: «العربية لغة الوحي والوحدة»، كتيب «المجلة العربية» (الرياض)، العدد 52، ربيع الآخر 1422، يوليو 2001، ص30.
3 – عدة مؤلفين: «التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982، ص13.
4 – عبدالرحمن، عواطف: «قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث»، سلسلة «عالم المعرفة» (الكويت)، العدد 78، حزيران 1984، ص48.
5 – صالح بلعيد، مصدر سابق، ص121 وص129–130.
6 – حسان، تمام: «اللغة العربية بين العوربة والعولمة»، في كتاب «مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية»، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2001، ص194.
7– أبو مدين، عبدالفتاح: «العربية بين العوربة والعولمة» في الكتاب السابق نفسه، ص225–226.
8 – بدران، إبراهيم: «اللغة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين»، في الكتاب السابق نفسه، ص358–359.
9 – عدة مؤلفين: «العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين»، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996، ص6.
10– عدة مؤلفين: «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية»، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996، ص5.
11– المصدر السابق نفسه، ص6.
12– النعيمي، خليل: «فضل اللغة: تجربة ذاتية في تدريس الطب بالعربية» في «قضايا فكرية» (القاهرة)، عدد خاص عن «لغتنا العربية في معركة الحضارة»، 1997، ص175.
13– المصدر السابق نفسه، ص177.
14– علي، نبيل: «نحو نظرة أشمل للغة» في المصدر السابق نفسه، ص298.
15– علي، نبيل: «العرب وعصر المعلومات»، سلسلة «عالم المعرفة» (الكويت)، 1994، ص369–380.
16– علي، نبيل: «الثقافة العربية وعصر المعلومات»، سلسلة «عالم المعرفة» (الكويت)، 2001، ص227–228.
17– واثيونغو، نغوجي: «تصفية استعمار العقل» (ترجمة سعدي يوسف)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1987، الغلاف الأخير.
18– المصدر السابق نفسه، ص18.
19– المصدر السابق نفسه، ص146.
20– المصدر السابق نفسه، ص147.
21– قاسم، محمود: «الأدب العربي المكتوب بالفرنسية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص16–17.
22– الصيادي، محمد المنجي: «التعريب في الوطن العربي» في كتاب «التعريب ودوره...» مصدر سابق، ص34.